

فصلية اللسان المبين (بحوث فى الأدب العربى)
محكمة عليها

السنة الثالثة، المسلسل الجديد، العدد الخامس، خريف ١٣٩٠

التناص القرآنى فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل*

الدكتور على باقر طاهرى نيا
أستاذ مشارك فى جامعة بوعلى سينا
پرستو قياسوند
طالبة الماجيستير فى اللغة العربية و آدابها

الملخص

إن التناص مصطلح حديث يدلّ على تفاعل النصوص معا يعنى أن النص يحتوى على نصوص كثيرة شكلت النص الجديد، فالكتابة نتاج لتفاعل عدد كبير من النصوص المخزونة فى الذاكرة القرآنية. ما زال القرآن الكريم و مضامينه و قصصه من أهم مصادر فى الأدب العربى و استلهم الأدباء حديثا و قديما من هذا المصدر الملهم الذى يحتوى على اسرار و قابليات كامنتين فى دلالات الفاظها و تعابيرها. فاستلهم ابن طفيل من القرآن الكريم كالنص الغائب أثناء قصة حى بن يقظان بحيث يرى تفاعل خاص بينهما. جدير بالذكر إن التناص فى هذه القصة يكون من القسم الدينى، الخارجى، الظاهرى و الخفاء، المباشر و غير المباشر و مسار التناص فيها لغوى و فكرى. و هذه المقالة تسعى وراء مناقشة التناص و اقسامه و مساره و معالجته فى قصة حى بن يقظان و القرآن الكريم.

الكلمات الدليلية

النقد الأدبى، القرآن الكريم، التناص، قصة حى بن يقظان.

* - تاريخ الوصول: ١٣٨٩/١٢/٢٢ تاريخ القبول: ١٣٩٠/٠٥/٢٠
عنوان بريد الكاتب الاكترونى: btaheriniya@basu.ac.ir

١- المقدمة

إن كل نص لاحق منبثق من هيولى النصوص السابقة لأن كل نص يتوالد، يتعالق، يتداخل و ينبثق من النصوص في مجاهيل ذاكرة المبدع التي تمتص النصوص بانتظام و بثها بعملية انتقائية خبيرة. فتشتغل هذه النصوص المستحضرة من الذاكرة داخل النص لتشكّل وحدات متعالية في بنية النص الكبرى. (الطعان، ١٩٩٤: ٤٤٦) بعبارة أخرى «إن النص لا ينشأ في فراغ، إنه يتوالد في مجتمع نصوي، أو هو تفاعل الكلام مع الكلام، و قد كانت الكلمة أولاً في البدء و من الكلمة الأولى انبثق الكلام و سمات الأبوة النصوية، و التقاليد الثقافية، والصوت التاريخي للنص السابق، وعلامات الوجه الخفية تطل جميعها من خلال النص الغائب إذا كان النص الجديد قوى التركيب والنسج، وتطل من خلال النص الظاهر أو البنية السطحية فالنص الجديد مخلخل النسج، و لذلك يصبح النص الحالي آلة تثبت نصوصاً أو أجزاء منها و يمكننا أن نستعين بالنصوص الغائبة في قراءة النص الجديد و تأويله». (الموسى، ٢٠٠٢: د.ص) على كل «إشارات في النص دائماً تشير إلى إشارات أخرى جعلها الفنان عن طريق الذاكرة الخاصة التي تكونت لديه من نصوص الآخرين الذين احتكوا بموضوع التجربة مباشرة. فالتناص ذلك التقاطع داخل التعبير مأخوذ من نصوص أخرى. و كل نص على هذا سيكون ذاتاً موحدة مستقلة لكنه قائمة على سلسلة العلاقات بالنصوص الأخرى». (السعدني، ١٩٩١: ٧٨-٧٧)

بما أن للقرآن الكريم مكانة خاصة لدى الأدباء و العلماء و الإستخدام الفني لآيات القرآن و مضامينه في النصوص و تعاملهما من علل جمالها و غنائها و لكون قصة حي بن يقظان من اهم النصوص الثرية الأدبية و العرفانية لدى المسلمين لمضامينها الغنية حول معرفة الله بالعقل و لتعاملها القرآن بالكثير فهذه المقالة تبحث حول التناص القرآني في هذه القصة و أستخدم فيها المنهج التوصيفي التحليلي.

٢- مفهوم التناص

التناص من المفاهيم الجديدة التي بدأت تستعمل في اللغة العربية بمعنى مختلف، عما كان عليه الأمر في العصور القديمة، ظهوره بدأ يتبلور في الثقافة العربية منذ عصر النهضة تحت تأثير الاستفادة من النظريات الغربية. التناص «Intertextualit» يدل على المشاركة بين اثنين فأكثر و يتفاوت من أقسام السرقات الأدبية كالتضمين، الإقتباس، التلميح و ... كما يؤيد هذا بعض النقاد المعاصرين كخليل موسى و عبد الملك مرتاض مؤكدين التمايز بينها. فهو حوار بين النصوص لأنها تعامل و تحاور معا.

«كانت الانطلاقة الحقيقية لهذا المبحث على يد الناقدة والروائية الفرنسية ذات الأصول البلغارية و المتخصصة في النقد النصي جوليا كريستيفا في عام ١٩٩٦ التي نشرت أبحاثاً لها في مجلتين فرنسيتين. حيث إنها عندما استقرت بفرنسا بعد دراسات حول الصحافة، أخذت موقفاً من المجادلات التي حركت وسط منظري الأدب و اللسانيات، واندمجت في المجموعة المنظمة حول مجلة كما هو و تعاونت مع الرموز السائدة المتجادلة حول النقد الجديد. إذن فقد تنبّهت كريستيفا لهذا المصطلح من خلال قراءتها لمنجزات الباحث الروسي باختين التي لم تكن معروفة في الغرب إلا في بداية و قد لعبت دوراً حاسماً في تطور النظرية الأدبية و اللسانية غير أنه رغم هذا لم يستعمل مصطلح «التناص» صراحة وإن كان منجزاته مصدراً مهماً من المصادر التي استلهمت منها كريستيفا نظرتها». (فرطاس، ٢٠٠٧: د.ص) فإنه عند كريستيفا «هو ذلك التداخل داخل تعبير مأخوذ من نصوص أخرى» و على هذا كل نص سيكون ذاتاً موحدة مستقلة لكنه قائم على سلسلة من العلاقات بالنصوص الأخرى. (السعدني، ١٩٩١: ٧٧)

يقضى التناص على مفهوم «أبوة النص» و «سلطة المؤلف» كما يقضى على نظرية الجنس الأدبي النقي، و على نظرية التأثر و التأثير لكنه يقيم وزناً كبيراً للقارئ في عمليتي التفكيك و إعادة الإنتاج. يطرح التناص الحوار و تعدد الأصوات و الوجوه ففيه حوار الحاضر للماضي و محاولة التعبير بالماضي عن الحاضر و هذا يتطلب من الكاتب أن يعي ما يجري حوله من أحداث و ثقافات و أن يكون قادراً على استلهاهم البقع التراثية المناسبة، أن يتصرف بها فنياً و جمالياً و في التناص بنية سطحية هي النص الظاهر أو السطحي و بنية عميقة و هي النص الغائب أو الواجهة الخلفية التي تسند النص المتشكل أو هي الكتابة شبه المححوة و هي المسكوت عنها غالباً. (الموسى، ٢٠٠٢: د.ص) فذلك يقوم التناص على جدلية حضور الغياب و الجديد القديم و الحاضر الماضي و يلغى الملكية الخاصة بموت المؤلف و نقاء أجناس أدبية بتداخل النصوص المختلفة. (الموسى، ٢٠٠٠: ١٢٩) أطلق «رولان بارت» مقولة «موت المؤلف» ليحل محله حياة القارئ الذي لا يملك حرية القراءة مع جثوم المؤلف فوق نصه. هي مقولة مرتبطة عامة بالفلسفة الغربية النابذة للماورائيات، و بفكر بارت خاصة و بفكرة ما بعد البنيوية. الهدف منها إبعاد القارئ عن المنظومات المنهجية الخارجية أثناء تأويل النص الأدبي، و الردّ على النزعة الرومانسية التي كانت تعلى من سلطة المؤلف (بلحاج، ٢٠٠٠: د.ص؛ الموسى، ٢٠٠٠: ١٢٩)

٣- ابن طفيل

«هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي، انتسب إلى قبيلة قيس و ولد في حوالى غرناطة في أوائل القرن السادس الهجري. انه تعلّم الطب في غرناطة ثم وضع في منصب أمين

الأسرار ولاية غرناطة ثم كاتم اسرار لدى حاكم طنجة، حتى وصل ابوعقوب يوسف كطبيب و صديق و وزير لهذا كان الإنسجام تامًا بينه و بين الملك حتى إنه كان يقيم في القصر عنده ليلا و نهارا و قد أدى ابن طفيل عن طريق هذه الصلة حق الزمالة العلمية خير أداء. فكان يجلب العلماء من جميع الأقطار و يحض الملك على إكرامهم و تهيئة الجو المناسب لهم». (محمود، ٢٠٠٠: ١٥-١٣) «يستدل من آراء ابن طفيل الفلسفية أنه كان مهندسا و عالما فلكيا شيد أفكاره في الفلك على أصول هندسية. و مما لا شك فيه أن ابن طفيل كان متعمقا في علم الطبيعة و في المعارف الحياتية على الأخص و يستدل من رسالة حي بن يقظان أنه اطلع على أكثر ما تركه اليونان و العرب من الآثار الفلسفية اطلاق بصير ناقد حول أعماق الحقائق الكامنة وراء المعارف العقلانية و لقد أثبت ابن طفيل قدرته على الموازنة بين الأفكار و المفاضلة بينها باعتبارها من كبار أهل الحق و العلم و الأدب و رغم أن فلسفته كانت تنطلق من المادة فقد كان من أصحاب الدين و التصوف و التقوى. و يتصف أسلوب ابن طفيل بالرقة و السلاسة و دقة الملاحظة و حسن السبك و التعبير اتخذ كغيره من الفلاسفة الرمز و الإشارة أسلوبا لتجسيد ما يتفاعل في أعماق من آراء و أفكار». (غالبا، ١٩٩١: ١٨-١٦)

على كل، تبين هذه القصة علم ابن طفيل و درايته في جميع علوم في زمنه من الحكمة، الهيئة، الطب، الأدب، الشريعة و ... (ملك شاهكوهي، د.ت: ٤)

٤- قصة حي بن يقظان

و اذا كان ابن طفيل طبيبا بحكم وضعه في القصر و فلكيا بشهادة أحد كبار الفلكيين و فيلسوفا إلهيا. فإنه كان أيضا أدبيا و رسالة حي بن يقظان تبرهن على ذلك في وضوح، تأنيق في الأسلوب و براعة في التعبير و سلاسة في التركيبات و لقد طوع اللغة لأفكاره فأدى المعنى في دقة تامة بأسلوب بارع. (محمود، ٢٠٠٠: ١٦) «لم يبق لنا من مصنفات ابن طفيل إلا رسالة «حي بن يقظان» أو اسرار الفلسفة الإشرافية و قد ترجم إلى اللغات المختلفة كاللاتينية، الإسبانية، الفرنسية حتى الآن و الأساس الفلسفي لهذه القصة أي الأسطورة الرمزية منهج كان عليه الفلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة. و قد صور ابن طفيل الإنسان الذي هو رمز العقل في صورة حي بن يقظان و قد هدف ابن طفيل من ورائها إلى بيان الإلتقان بين الدين و الفلسفة و هو موضوع شغل أذهان المفكرين المسلمين كثيرا. هذه القصة عكفت على بحث النشوء الطبيعي و تطور التفكير في الإنسان و بيان كيفية تدرج الإنسان بالتأمل و الفكر في المعرفة من الإحاطة بما حوله من عالم المادة حتى يستطيع أن يتصل من طريق العقل بالله». (غالبا، ١٩٩١: ١٦-١٥) فهذه القصة كمرآة تنعكس فيه الإستحالة في روح البشر طوال عمره و كل الأحداث و الشخصيات و الحوار في هذه القصة ليس حقيقية بل

تصدر من خيال الكاتب. إنها مزج للعلم و الأدب و الفن مملوءة من الرموز و التنبيهات؛ تتجلى فيه إحدى من الأصول الهامة الفلسفية أى المعرفة بفن القصة. (طاهرى نيا، ١٣٨٨: ٤)

«قصة حي بن يقظان تدور حول شخص قد نشأ في جزيرة منعزلة عن العالم لا أثر فيها لبشر، فأخذ ينظر و يتأمل و ينسج متدرجا من المحسوس إلى المعقول و من الجزئيات إلى الكلليات حتى وصل إلى تكوين فكرة عن الله و عن الملائ الأعلى ثم أخذ في الرياضة الروحية حتى وصل إلى طور الولاية ثم شاءت الظروف أن يصل إلى الجزيرة عابداً متديناً بدين سماوى أراد العزلة ليتفرغ للعبادة فالتقى به حي بن يقظان و بعد تفاهمهما و أخذ كل منهما عن الآخر التزم حتى ما ذكره له العابد من شعائر دينية و بعد محاولة فاشلة لهداية المدينة التي نشأ فيها العابد، عاد حي إلى الجزيرة و استقر فيها إلى أن أتاه اليقين». (محمود، ٢٠٠٠: ١٩)

«يزعم بعض الفلاسفة بأن الغرض الأصلي لهذه الرسالة شرح غربة البشر و وحدته أو تبيين كيفية علاقة بين البشر و المجتمع، و يمكن أن يكون حول كيفية حصول المعرفة و أن الإنسان يستطيع أن يدرك الحقيقة في العزلة و الغربة أيضاً؛ لكن بعضهم يعتقدون بأن القصد منها جمع بين العقل و الدين أى الفلسفة و الشريعة. على كل، هذه القصة يحتوى على المعانى الفلسفية و المسائل الهامة حول الطبيعيات و الشرعيات كما استخدمت فيها الاساليب الادبية و الكتابة الراقية و الخيال القوى أيضاً» (طاهرى نيا، ١٣٨٨: ٢) «اهتم ابن سينا و السهروردى و ابن طفيل بهذه القصة لكن النبوية في قصة ابن سينا اقل إستحكاماً بالنسبة اليهما و هذه القصة عندهم تكون من معالم اهتمام البشر بمعرفة الله من زمن بعيد». (ملك شاهكوهى، د.ت: ٢)

ابن طفيل أرقى من حيث اللغة و الأدب و جاءت عبارته أنصع و أبلغ في هذه القصة بالنسبة إلى ابن سينا و السهروردى اللذين اهتموا بقصة حي بن يقظان. فهذا النص عمل أدبى انتجه عالم و اديب ذو ثقافة واسعة و ذوق وافر و ملئ بالمضامين الأدبية و الفلسفية و الحكيمية يفتح مجالاً واسعاً للقارئ و الباحث كى يفتش الزوايا الكامنة و يكتشف القناع عن البطون المعرفية له و يرى بين هذه القصة و القرآن الكريم عملية التناص بالكثير الذى جعل نصها ثرياً و أرقى جمالاً و فناً.

٥- التناص القرآني في قصة حي بن يقظان

إن التراث الدينى كان مصدراً سخياً من مصادر الإلهام الأدبى لدى معظم الأدباء. و هذا ما يؤكد الدكتور على عشرى زايد فى قوله: «وإذا كان الكتاب المقدس هو المصدر الأساسى الذى استمد منه الأدباء الأوربيون شخصياتهم و نماذجهم فإن عدداً كبيراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الإسلامية، و فى مقدمتها القرآن الكريم، حيث استمدوا من هذه المصادر الإسلامية الكثير من الموضوعات و الشخصيات التى كانت محوراً لأعمال أدبية عظيمة و ليس غريباً أيضاً أن يكون الموروث الدينى

مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها شعراؤنا المعاصرون، واستمدوا منها شخصيات تراثية، عبّروا من خلالها عن بعض جوانب من تجاربهم الخاصة». (زايد، ١٩٩٧: ٧٥). فلاذباء يحكمون اشعارهم ببعض المفاهيم التي وردت في القرآن الكريم؛ واستفاد ابن طفيل من القرآن الكريم في قصة حى بن يقظان. تعالج هذه المقالة النص الحاضر فالنص الغائب ثم دراسة كيفية نوع التناص فيها و جدير بالذكر ان هذه القصة تؤخذ من كتاب قصة حى بن يقظان الذى ضبطه عصام فارس الحرسنانى.

٦- اشكال التناص و اقسامه فى قصة حى بن يقظان

يعالج ظاهرة التناص من جهات مختلفة؛ هناك من النقاد من قسم التناص من جهات مختلفة.

٦-١- يقسم التناص حسب توظيفه فى النصوص إلى النوعين الخفاء و الظاهر:

٦-١-١- التناص الخفاء (التناص اللاشعورى) الذى فيه يكون مؤلف غير واع بحضور النص أو النصوص الأخرى فى نصه الذى يكتبه و يقوم هذا التناص فى استراتيجيته على الإمتصاص و التوذيبي و التحويل النصى. (رستم پور، ١٣٨٤: ١٨)

و يرى التناص الخفاء فى قصة حى بن يقظان هكذا «فإن وجود العالم كله إنما هو من جهة استعدادة لتحريك هذا المحرك البرىء عن المادة و عن صفات الأجسام المنزه عن أن يدركه حس أو يتطرق إليه خيال...» (ابن طفيل: ٦١) تتعامل الآية الشريفة «لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير» (أنعام/ ١٠٣) الألفاظ المستعملة فى القصة تأثرت من الألفاظ القرآنية ك «يدركه» دون شعر الكاتب و أيضا معنى هذه الجملة القصصية حول واجب الوجود و خبرته و لطافته كما نرى و تبادر إلى البال الآية القرآنية خفية على سبيل مثال «البرىء عن المادة و عن صفات الأجسام المنزه عن أن يدركه الحس و يتطرق إليه خيال» يتعامل «لا تدركه الأبصار» و «و هو اللطيف» كأن الألفاظ القرآنية ذابت فى القصة دون وعى الكاتب فتناص فيها من القسم الخفاء.

٦-١-٢- القسم الثانى من التناص حسب توظيفه فى النص هو التناص الظاهر الذى يدخل ضمنه و يسمى الإقتباس الواعى أو الشعورى لدن المؤلف يكون واعيا به. (رستم پور، ١٣٨٤: ١٨) التناص الظاهرى فى قصة حى بن يقظان اكثر بالنسبة إلى التناص الخفاء؛ على سبيل مثال العبارة «و تحقق له أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون فاللتم خدمته و الإقتداء به...» (ابن طفيل: ٩٧) تبادر ظاهرا إلى البال الآيات الشريفة «قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون» (بقره/ ٣٨) ، و «إن الذين آمنوا و عملوا الصلحات و أقاموا الصلاة و آتوا لهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» (بقره/ ٢٧٧) و أيضا «يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم و لا هم

يحنونون» (اعراف / ٣٥). العبارات للنص الحاضر يعنى «الذين لا خوف عليهم» و «ولا هم يحزنون» علامة تأثير الكاتب من آيات القرآن الكريم لفظا كما يرى فى سورة بقره و اعراف دون أى غموض و خفية. مضمون القصة يدل على اقتداء ايسال بحى بن يقظان الذى كان فى رأيه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و يجب إتباعه و أن يحذو حذوه فمعنى الآيات الكريمة أيضا يدل على اتباع الهدى و عدم حزن و خوف على الذين يتبعون الهدى. فإستخدام بعض الكلمات فى القصة ك «إلتزام الخدمة و الإقتداء به» فى معنى الالفاظ القرآنية ك «اتباع هداى، إلقاء، إقامة الصلاة و إصلاح و ...» تدل على تأثير الكاتب من القرآن الكريم معنى بالوضوح و وعيه باستخدامه.

أيضا النص الحاضر «قد اتخذوا إلههم هواهم و معبودهم شهواتهم». (ابن طفيل، ١٠٠) تدل على تعامله النص الغائب «أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفانت عليه وكيفا». (فرقان/ ٤٣) ظاهرا و دون غموض. عبارة «قد اتخذوا إلههم هواهم» تعامل «أرأيت من إتخذ إلهه» و التناسق الظاهر بينهما لفظا و أيضا بين تلك العبارة القرآنية و فى عبارة قصصية «معبودهم شهواتهم» التناسق الظاهر معنى، فالمعنى فى الحاضر يبادر إلى الذهن الغائب الذى يكون حول إتخاذ البشر هواه إلهها و كفره لتلائم معنى للنصين دون خفية. هذا علامة وعى الكاتب و شعوره بهذا تعامل و هكذا زاد القصة غناء و جمالا.

٦-٢- يقسم التناسق حسب كيفية استخدام النص الغائب إلى قسمين:

الف- التناسق المباشر: يقصد بالتناسق المباشر سواء كان النص تاريخيا أم دينيا أم أدبيا اقتباس النص بلغته التى ورد فيها مثل الآيات و الأحاديث و الأشعار و القصص.

ب- التناسق غير المباشر هو ما يدعوه بتناسق الأفكار أو المقروء الثقافى أو الذاكرة التاريخية التى تستحضر تناسقاتها بروحها أو بمعناها. (الزغبى، ٢٠٠٠: ٢٠) و يوجد كلاهما فى قصة حى بن يقظان على سبيل مثال:

النص الحاضر: «و كان الذى أوقعه فى ذلك ظنه أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة و أذهان ثاقبة و نفوس عازمة و لم يكن يدري ما هم عليه من البلادة و النقص و سوء الرأى و ضعف العزم و أنهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا». (ابن طفيل: ٩٨)

النص الغائب: «و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ و الإنس لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغفلون» أعراف/ ١٧٩ المعنى و اللفظ للقصة تدل على تعاملهما الآية الشريفة، كما يرى الفاظ النص الغائب فى النص الحاضر فى عبارة «أنهم كالأنعام بل هم أضلّ» فالتناسق فيها مباشر لاقتباس النص الغائب بلغته التى ورد فيها، و حضور تراكيب كسوء الرأى، لم يكن يدري، النقص و ... فى النص الحاضر تدل على

التناص غير المباشر لأنها تدلّ على معنى و فكر و روح تراكيب النص الغائب ك«لا يفقهون، لا يبصرون، لا يسمعون» لأنها تدلّ على جهل و ضلال و رد الحق.

٣-٦-٣- التناص ينقسم حسب مصدر الإيحاء و الإستلهام إلى قسمين:

٣-٦-١- التناص التلقائي: يستخدم التناص في هذا القسم كعادة كأنه أمر طبيعي لا بدّ منه و كأنه من الرسوم الشاعرية؛ كإهتمام شعراء الجاهلية حول تلميح بوقوف على أطلال و رسوم الحبيبة التي يحسب أمر طبيعي ينتظره المخاطب في بدء القصيدة.

٣-٦-٢- التناص الداخلي: يستفيد الأديب في النص الحاضر من منتجاته الأخرى يعنى النص الغائب ايضاً من مكنوياته أيضاً. كما يرى هذا التناص في «انشودة المطر» و «غريب على الخليج» من بدر شاكر السياب.

٣-٦-٣- التناص الخارجي: هذا القسم من التناص أكثر إستعمالاً بالنسبة إلى الأقسام الأخرى و يستخدم الأديب في النص الحاضر من نصوص الأدباء الآخرين و من نصوص ليس من منتجاته. (واحدى، ١٣٨٥: ٣٩-٣٨)

٣-٦-١- التناص القرآنى فى قصة حى بن يقظان حسب مصدر الإيحاء و الإستلهام يكون من القسم الخارجى كله، على سبيل مثال:

النص الحاضر: «... و ظلمات الحجب قد تغشّهم و الكل منهم إلا اليسير لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا و قد نبذوا أعمالهم على خفتها و سهولتها وراء ظهورهم و اشتروا بها ثمناً قليلاً». (ابن طفيل، ١٠٠)

النص الغائب: «و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون». آل عمران / ١٨٧

اراد ابن طفيل فى النص الحاضر وصف قوم سلامان و عدم اطاعتهم الله و تأثر من القرآن الكريم فاستخدمه و جعله ثرياً لأن وصف القوم هكذا ابلغ للمخاطب من عبارات البشرية. فالعبارتين «قد نبذوا أعمالهم على خفتها و سهولتها وراء ظهورهم» و «اشتروا بها ثمناً قليلاً» تبادلوا لفظاً إلى البال آية ١٨٧ من سورة مباركة آل عمران و أيضاً كلال النصين تدل معنى على الضرر فى اعمال الذين لا يعرفون الله حق عرفانه و لا يطيعون الاوامر الإلهية. التناص هنا من القسم الخارجى لأن الكاتب استخدم الآيات و المضامين القرآنية التى تكون من كلام الله تعالى و مصدر إيحاء لابن طفيل ليس بداخلى و تلقائى لعدم كونه من نتاجه الأخرى و من رسوم الكتاب الآخرين كعادة.

٣-٦-٤- يقسم التناص حسب نوع النص الغائب أيضاً إلى أقسام مختلفة:

الف- التناص الأدبي: تداخل النص الأدبي النصوص الأخرى يسمى التناص الأدبي الذي يستخدم لتبيين قصد الأديب.

ب- التناص الاسطوري: الأديب يستفيد في النص الحاضر من بعض الأساطير القديمة.

ج- التناص التاريخي: يستفيد الأديب من بعض النصوص التاريخية ملائماً للنص الحاضر.

٦-٤-١- توجد للتناص أقسام أخرى حسب نوع النص الغائب كالديني و الفلسفي و ... حسب نوع النص الغائب و التناص في قصة حي بن يقظان يكون من القسم الديني لأن النص الغائب هو القرآن الكريم و له مكانة خاصة لدى الكاتب المسلم لأنه نص فوق الأجناس النصوية و فوق مقاربتها استلهم ابن طفيل من مضامينه العالية و موضوعاته كنص ديني على سبيل مثال:

النص الحاضر يعني «لا تنجع فيهم الموعظة و لا تعمل فيهم الكلمة الحسنة و لا يزدادون بالجدل إلا إصراراً و أما الحكمة فلا سبيل لهم إليها و لا حظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة و ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» (ابن طفيل: ١٠٠) تبادل إلى البال النص الغائب يعني «إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» مطفيين / ١٤-١٣. يرى التعامل الحاضر الغائبَ لفظاً في عبارة «ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

بعض العبارات القصصية كـ«لا تنجع فيهم الموعظة، لا تعمل فيهم الكلمة الحسنة، الحكمة فلا سبيل لهم إليها و ...» يدل معنى على بعض التراكيب القرآنية كـ«إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين» يعني عدم قبول الحق و مجادله فيه و هذا المعنى و النص الغائب في الحقيقة ديني. فالتناص في قصة حي بن يقظان من القسم الديني و أصبح توظيف التراث الديني في الأثر تعزيزاً قوياً لأدب و عاملاً لاستمراره في ذاكرة المخاطب و حافظته.

٦-٥- مسارات أهمها اللغوي، الفكري، البنيوي و الطباعي:

الف- المسار اللغوي: يكون في المفردات و التراكيب و الوزن و القافية و الأسلوب و العناوين الفرعية.

ب- المسار الفكري: يكون في الأفكار و المعاني و ما يتصل بها.

ج- المسار البنيوي: يكون في العناصر البنيوية التي يبنيها النص السابق في النص الجديد (استلهم التراث القومي و الإنساني، كما يكون في اتجاه العمل الأدبي و جنسه (قصيدة غنائية، قصيدة موضوعية...).

د- المسار الطباعي: يكون في الحجم، الخط، الرسومات، الألوان، لتشكيلات المرئية. (الموسى، ٢٠٠٢، د.ص)

٦-٥-١- مسار التناص في قصة حي بن يقظان لفظي و فكري أى استخدم ابن طفيل المفهوم و المنطوق للقرآن الكريم فيها هكذا:

٦-٥-١-١- النص الحاضر: «ثم إنها حملت منه و وضعت طفلا فلما خافت أن يفتضح أمرها و ينكشف سرها وضعت في تابوتا حكمت زمه بعد أن أروتها من الرضاع و خرجت به في الليل في جملة من خدمها و ثقاتها إلى ساحل البحر و قلبها يحترق صباة به و خوفا عليه ثم إنه ودعته و قالت : اللهم إنك خلقت هذا الطفل و لم يكن شيئا مذكورا ... فكن له و لا تسلمه يا أرحم الراحمين، ثم قذفت به في اليم». (ابن طفيل: ٢٢)

النص الغائب الأول: «و أوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فإلقيه في اليم و لاتخافي و لاتحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين». قصص / ٨-٧

النص الغائب الثاني: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» الإنسان / ١

عملية التناص: استلهم ابن طفيل من قصة موسى (ع) في القرآن الكريم في قضية ولادة حى هكذا. أمه جعلته في تابوت و قذفته في اليم حتى تنجاه من السطان الجبار كما جعلت ام موسى طفلها رغم ضيق صدرها في اليم لنجاته من فرعون و جنوده، فقد يرى تأثير المعنى و الفكر القرآني فيه فمسار التناص فيه فكري و أيضا كلمات ك «التابوت، خافت عليه، الرضاع، اليم و...» تبادل قضية موسى إلى الذهن فمسار التناص لغوي أيضا؛ لكن كان خوف الأم في القصة من كشف افتضاها و على ولدها أيضا لكن خوف أم موسى في القرآن الكريم كان لولدها فقط. تعامل القصة و القرآن الكريم حول. ولادة حى زادا جمالا و خيالا و يعطيها من خصائص القصص القرآنية على سبيل مثال الخيال. في القصة الذى يذهب بالمخاطب إلى زمن ولادته حتى يرى أمه و يحس حزنها و ضيق صدرها كما كان في قصة موسى (ع).

تأثر ابن طفيل في تلك النص الحاضر من آية ١ لسوره الإنسان المباركة لفظا و العبارة «لم يكن شيئا مذكورا ...» تدل على مسار التناص الغوى؛ و إنه فكري أيضا لدلالة القصة على خلق إنسان و عدم كونه شيئا مذكورا؛ على كل المفهوم و المنطوق في القصة تدل على الآيات المذكورة.

٦-٥-١-٢- النص الحاضر: «و في خلال ذلك تنن ذلك الجسد و قامت منه روائح كريهة. فزادت نفرته عنه و ود أن لا يراه ثم إنه سرح لنظره غربان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا. ثم جعل الحى يبحث في الأرض، حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال في نفسه: ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه و إن كان قد أساء في قتله إياه! و أنا كنت أحق بالإهداء إلى هذا الفعل بأمي؛ و ألقى فيها جسد أمه و حثا عليها التراب». (ابن طفيل: ٣٥)

النص الغائب: «فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غربا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوء أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين». (بقرة / ٣١-٣٠)

عملية التناص: كلا النصين يدل على كشف الإنسان منهنجا لدفن الميت أول مرة و اتباعه من الغراب. فاستلهم الكاتب هنا أيضا من قضية دفن هابيل بواسطة قابيل الذي قتله ثم رأى غرابا دفن غرابا آخر و ففى القصة حي بن يقظان دفن أمه التى ماتت و فاهت من جيفتها روائح كريهة هكذا؛ فيبادر إلى بال هذا القسم من القصة الآية الشريفة فمسار التناص فكرى. و أيضا اللغات فى هذا القسم استلهمت من القرآن الكريم كـ«الغراب و يوارئ» و تدل على مسار التناص اللغوى ولكن فى مقارنة بين التعابير فى النصين، يرى إستخدام الجيفة إزاء سوء ملائما بالنصين.

٥-١-٣- النص الحاضر: «قالوا : فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى و سجدت و سخرت بأمر الله تعالى فى كمالها ...» (ابن طفيل: ٢٥)
النص الغائب الأول: «و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى و إستكبر و كان من الكافرين». (بقره / ٣٤)

النص الغائب الثانى: «الله الذى خلق السماوات و الأرض و انزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم و سخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره و سخر لكم الأنهار . و سخر لكم الشمس و القمر دائبين و سخر لكم الليل و النهار» (ابراهيم / ٣٣-٣٢)
النص الغائب الثالث: «الم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض و الفلك تجرى فى البحر بأمره و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم» (حج / ٦٥)
النص الغائب الرابع: «الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون» (الجاثية / ١٢)

عملية التناص: أشار ابن طفيل فى قصة حي بن يقظان بقضية أمر الله تعالى بسجود الملائكة لآدم (ع) لكماله و اشرفيته فى قصة آدم (ع) فى القرآن الكريم بسجود جميع القوى بين يدي حي؛ المسار للتناص فى هذا القسم من القصة فكرى و لكن استكبر و أبى إبليس من سجود لآدم (ع) فى القصة القرآنية و ما أبى شىء فى قصة حي بن يقظان منه. إستعمال الكلمة «سجدت» يدل على التناص اللغوى أيضا.

أشار ابن طفيل فى هذا النص الحاضر إلى تسخير الله جميع القوى لحي بن يقظان كانسان و استفاد من النصوص الغائبة كما يرى فى سورة ابراهيم، الحج، الجاثية التى تدل على تسخير جميع القوى كالشمس و القمر و البحر و ما فى الأرض و ... للإنسان فمسار التناص فيها فكرى و لفظى أيضا لاستخدام الفاظ كـ«سخر، أمر الله» فى القصة. فإشارة إلى خلق الآدم و سجود جميع القوى له و تسخير كل شىء للإنسان بأمر الله زاد غناء القصة الفكرية حول علو شخصية البطل فى القصة.

النتيجة

إن التراث الديني عامة و القرآن الكريم خاصة كان مصدراً سخياً من مصادر الإلهام الأدبي لدى معظم الأدباء كما يرى في قصة حى بن يقظان لابن طفيل التي تكون نصاً حياً يحتوى على المعانى الفلسفية و المسائل الهامة حول الطبيعيات و الشرعيات كما استخدمت فيها الاساليب الادبية و الكتابة الراقية و الخيال القوى أيضاً. إنها كمرآة تنعكس فيه الإستحالة لروح البشر طوال عمره و تأثر كاتبه من القرآن الكريم فى تبيين ما قصده بالكثير فهناك بينها و بين القرآن الكريم تعامل قوى. التناص فى هذه القصة أى النص الحاضر و النص الغائب أى القرآن الكريم يكون من القسم ١- الدينى حسب نوع النص الغائب الذى يكون القرآن الكريم الذى يكون اعظم النصوص الدينية، ٢- الظاهرى لكون المؤلف واعياً بحضور القرآن الكريم فى أثره و أيضاً الخفاء لعدم شعور الكاتب به أحياناً، ٣- المباشر لإستخدام نص القرآن بلغته التى ورد فيها و غير المباشر لحضور معنى و فكر للنص الغائب فى الحاضر، ٤- الخارجى لتعامل قصة بشرية حى بن يقظان و نص كلام الله الذى ليس من نتاج الكاتب أو من رسوم الكتاب الآخرين كعادة. جدير بالذكر إن مسار التناص فى قصة حى بن يقظان فكرى و لغوى لحضور مضامين القرآن الكريم العالية فى افكار و روح القصة و مفردات و تراكيبه فى نصها.

المصادر و المراجع

الف- الكتب:

١- القرآن الكريم.

٢- زايد، على عشرى.(١٩٩٧). «استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر»، بيروت: دار الفكر العربى، لا.ط.

٣- الزغبى، احمد. (٢٠٠٠). «التناص نظرياً و تطبيقاً، الأردن»، مؤسسة عمّون للنشر و التوزيع، الطبعة ٢.

٤- الطعان، صبحى.(١٩٩٤). «بنية النص الكبرى»، المطبعة عالم الفكر، لا.ط .

٥- علوش، سعيد.(١٩٨٥). «معجم المصطلحات الأسلوبية المعاصرة»، لا.ط.

٦- غالب، مصطفى.(١٩٩١). «ابن طفيل»، بيروت: دار مكتبه الهلال، لا.ط.

٧- فارس الحرسنانى، عصام.(١٤١٦). «قصة حى بن يقظان ابن طفيل»، اردن، دار العمار، الطبعة الأولى.

٨- محمود، عبد الحليم.(٢٠٠٠). «فلسفة ابن طفيل و قصة حى بن يقظان»، مصر: دار الغريب للطباعة و النشر و التوزيع، لا.ط.

ب- المجلات:

- ٩- رستم يور ملكي، رقيه.(١٣٨٤). «التناص القرآني في شعر محمود درويش»، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية و آدابها فصلية محكمة، تهران، العدد ٣، صص ٣٤-١٥.
- ١٠- طاهري نيا، علي باقر؛ پرستو قياسوند.(١٣٨٨). «بررسی آمیزش ادب، علم و هنر در داستان حي بن يقظان ابن طفيل»، من المقالات للمهرجان الدولي للحكمة السنيوية، همذان.
- ١١- فرطاس، نعيمة.(٢٠٠٧). «نظرية التناصية والنقد الجديد (جوليا كريستيفا أنموذجاً)»، مجلة الموقف الأدبي من اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٤٣٤.
- ١٢- ملك شاهكوهي، رضا.(د.ت).«مقايسه اجمالی داستان حي بن يقظان از ابن طفيل و ابن سينا و شيخ اشراق»، من المقالات للمهرجان الدولي ابن سينا .
- ١٣- الموسى، خليل.(٢٠٠٢). «التناص، جريدة الاسبوع الأدبي»، العدد ٧٩٠ .
الأطروحة:
- ١٤ - واحدى، ماشالله.(١٣٨٥)، «بررسی تناص قصائد احمد مطر با قرآن كريم»، أطروحة لمرحلة الماجستير بجامعة بوعلى سينا ، همذان .
- ج- المصادر الإلكترونية:
- ١٥- بلحاج، احمد.(٢٠٠٧). «حضور النص القرآني في الشعر أهو تناص أم اقتباس؟»
- ١٦- السعدني، مصطفى.(١٩٩١). «التناص الشعري»، مركز الدلتا للطباعة-www.al-mostafa.com
- ١٧- الموسى، خليل.(٢٠٠٠). «قراءات في الشعر العربي المعاصر و الحديث»، من منشورات إتحاد الكتاب العربى www.awu-dam.com

فصلنامه‌ی لسان مبین (پژوهش ادب عربی)

(علمی - پژوهشی)

سال سوم، دوره‌ی جدید، شماره‌ی پنجم، پاییز ۱۳۹۰

بینامتنی قرآنی در داستان حیّ بن یقظان «ابن طفیل»*

دکتر علی باقر طاهری نیا
دانشیار دانشگاه علی سینای همدان
پرستو قیاسوند
دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی

چکیده

بینامتنی اصطلاح جدیدی است که بر سازگاری و همگانی متون با یکدیگر دلالت دارد. به عبارت دیگر بینامتنی یعنی اینکه متن، حاوی متون فراوانی است که خود اینک متن جدیدی را تشکیل داده است. یک نوشتار، محصول همکاری تعداد فراوانی از متون انباشته در حافظه‌ی خوانشی است. قرآن کریم، مضامین و داستان‌های آن از مهمترین سرچشمه‌های ادب عربی می‌باشد. ادبای گذشته و حال از این منبع الهام گرفته‌اند. ابن طفیل نیز از قرآن به عنوان یک «متن غایب» در ضمن داستان «حیّ بن یقظان» الهام پذیرفته است.

این نوشتار به بحث درباره‌ی این داستان و جنبه‌های بینامتنی آن و الهام از قرآن کریم می‌پردازد. پدیده‌ی بینامتنی در این داستان از نوع دینی، خارجی، ظاهری و ناپیدایی مستقیم و غیر مستقیم است و سیر حرکت بینامتنی به شکل لغوی و فکری را نشان می‌دهد.

واژگان کلیدی

نقد ادبی، قرآن کریم، تناص، قصه حیّ بن یقظان.

* - تاریخ دریافت مقاله: ۱۳۸۹/۱۲/۲۲ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۰/۰۵/۲۰

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: btaheriniya@basu.ac.ir